Ахунжанов Шахобидин

СЕМАНТИ1СА У АРАБОВ

УДК: 894.345/74(543.3)

تهدف هذه المقالة إلى بيان إسهام علماء العربية في وضع أصول أسس لعلم الدلالة، وتوضح مدى اهتمامهم بالمعنى، هذا الاهتمام جعلهم ينظرون إلى اللفظ "الكلمة" على أنه النواة والركيزة الأساسية للوحدة الدلالية، التي ينشأ عنها وحدات الكلام، سواء كانت جملة أو عبارة أو تعابير اصطلاحية، مثل "صرب كفاً بكف" أي ندم وتحسر.

في الوقت نفسه تشير الدراسة إلى أن لعلم اللسانيات فضلاً كبيراً في إرساء مناهج البحث في علم الدلالة ووضع أصوله، حيث أصبح علماً قائماً بذاته، بعد أن كان ظلاً يسير في كنف العلوم الأخرى. إضافة إلى ذلك بينت الدراسة أن كثيراً من معطيات الدرس الدلالي الحديث، توصل لها علماء العربية أثناء دراستهم للغة، مما جعلنا نقول أن علم الدلالة علم قديم تناوله اللغويون من قبل، وحديث باعتبار أن أصوله وأسسه ومنهج البحث فيه قد حددت في مطلع القرن العشرين.

لعلماء العربية جهود نيرة وذكية في الدرس اللغوي على اختلاف ميادينه، فلقد كانوا يصدرون في دراستهم اللغة عن رؤية شاملة انبثقت من تصورهم للغة على أنها وسيلة للتفاهم

ووعاء للفكر. فلقد تنوعت ما بين النحو والصرف واللغة وتصنيف المعاجم والبلاغة. ولكن حسبنا أن نشير إلى ما يسمى الآن في الدراسات اللسانية ب "Semantics" علم الدلالة أو علم المعنى هذا العلم ظن كثير من الباحثين أنه علم لم يكن للعرب معرفة به، فهو علم نمت أصوله وترعرعت في ظل الدراسات اللسانية الحديثة. لعلم اللسانيات اليد الطولي في الكشف عن أسس هذا العلم وبيان أصوله وتعهده بالرعاية والعناية حتى غدا علماً قائماً بذاته بعد أن كان ظلاً يسير في كنف الدراسات اللغوية الأخرى.

والبحث اللغوي عند العرب منذ بداياته تركز على تحديد المعنى وما يحتويه القرآن الكريم من معانٍ ومقاصد. فلقد كان هم الدراسات العربية بمختلف فروعها ومسمياتها نحوا وصرفاً وبلاغة ولغة ومعاجم، "معرفة المعنى". لذا كان علم الدلالة جزءاً ملازماً لعلوم اللغة العربية لم ينفصل عنها.

إن علم الدلالة علم قديم وإن بدا أنه حديث. فما من أمة من الأمم إلا وبحثت في ألفاظ لغتها. فهو علم قديم باعتبار أن البحث في المعنى من حيث الوضوح والغموض والصحة وعدمها والاحتمال والفساد وما تتعرض له دلالة الألفاظ من تحول في المعنى إلى معنى آخر وأسباب هذا التحول ومظاهره مشاهد وملاحظ في أقدم ما وصل إلينا من تراث الأمم.

ثم هو علم مستحدث بأن "علم اللسانيات الحديث" طور نظرياته، ووضع أصوله، ووضح معالمه، وبين صلته بالعلوم الأخرى. فغدا علماً قائماً بذاته له مناهجه ونظرياته، بعد أن كان ضمن العلوم الأخرى. والعرب مثلهم في هذا مثل الأمم الأخرى، جاءت مباحث الدلالة عندهم موزعة في مختلف علومها وتراثها، حيث كان المعنى هو الوجهة والأساس الذي إليه يقصدون وبه كانوا معنيين.

أصبح لعلم الدلالة مصطلحات ترد عند الدارسين المحدثين منها ما يسمى بالوحدة ولكن الذي يعنينا هو أن الوحدة الدلالية عند العرب هي الكلمة سواء كانت اسماً أو فعلاً أو حرفاً، فهي التي تمثل المكونات الأساسية للكلام منطوقاً ومكتوباً إذ أنه بدون ذلك ينعدم الكلام. من هذا المنطلق أصبح اللفظ موضع اهتمام العلماء فقامت الدارسات ببيان وتوضيح هذه الوحدة من حيث:

١- معرفة نطقها نطقاً صحيحاً كما جاء عن العرب.

٢- بيان صيغها.

٣- بيان معناها.

٤- معرفة وضعها الوضع الذي يقتضيه علم النحو.

٥- بيان الأسباب التي تؤدي إلى تعدد معناها.

هذا الاهتمام يؤكد أن الكلمة في نظر علماء العرب تمثل أهم الوحدات الدلالية، لأنها أساس الكلام، فهي الوحدة الدلالية الصغرى التي تنشأ منها الوحدات الدلالية الأخرى. وهذا ما يراه علماء الدلالة المحدثون. فالكلمة لها دلالة ولكن لا يتحدد معناها حتى توضع في تركيب، وهذا التركيب ينقسم كالآتي:

أ- تركيب إضافي وهو إضافة كلمة إلى كلمة أخرى " اسم إلى اسم " ينشأ عنه معنى جديد كقولنا " أبو الحرب " مُهَيِّجها، "كبير القوم " سيدهم، " أم الخبائث " الخمر.

ب- التركيب عن طريق الوصف وهو أن تأتي باسم عام ثم تحدده عن طريق الوصف مثل الأرض الزراعية، البنية التحتية، الإرادة الشعبية، المجال العسكري.

ج- تركيب العبارة وغالباً ما تكون قولاً يدل على حكمة أو مثل أو تجربة ك "رجع بخفي حنين" لم يحقق شيئاً.

د- تركيب الجملة: وهي التي يمثل الإسناد فيها عنصراً أساسياً وهو " تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض فإذا قلت: "محمد كريم" فقد أسندت علم الدلالة الكرم لمحمد.

وتركيب الجملة أهم وحدات المعنى؛ وقد شغلت ولا تزال تشغل الباحثين على مختلف اتجاهاتهم لأنها تخفى أحياناً من المعاني التي قد لا تكون ظاهرة لذا كانت موضع اهتمام علم الدلالة المعاصر.

وعلماء الدلالة المحدثون يرون أن صعوبة تحديد المعنى مشكلة أزلية وهي التي كثيرا ما تثير الفتن لأن الألفاظ قد تؤول من قبل المتلقي إلى معان غير التي أرادها المتكلم. لذا يحدث الخلاف بسبب عدم فهم المعنى. وهذا يلاحظ عندما تصاغ الأنظمة والقرارات بصياغات غير محكمة تجعل المعنى المراد منها عرضة للاجتهادات والتأويلات فتفسر بتفسيرات متعددة، لذا كان من الأهمية بمكان أن تكون اللغة محكمة الصياغة واضحة الدلالة لا تتحمل الشك والتأويلات، ففهم المعنى مرتبط بالاستعمال ومعرفته من قبل المتلقي.

فالوظيفة الأساسية للغة، هو التفاهم بين أفراد المجتمع، لذا كان لابد من توضيح ما يبدوا غير واضح وإزالة اللبس عما نظن أنه غامض، حتى لا تؤول النصوص، وتطمس معالم الدلالة لذلك كانت الحركة العلمية التي قام بها العلماء العرب تمثل أروع جهد بذل في سبيل الحفاظ على سلامة المعنى ووضوحه وتأسيس علم المعنى، فأفضى ذلك الحديث عن المترادف، والمشترك اللفظي والمتباين والغريب من الألفاظ الذي لا يتوصل إلى معناه إلا بعد معاناة وإعمال الفكر، وبينوا المشكل والمتشابه في التراكيب، والحقيقة والمجاز، والتوسع في المعنى. فعن المشترك اللفظي والمترادف وألفت كتب كثيرة، وكذلك عن الغريب وكان لعلماء الغريب سواء من اشتغل بغريب القرآن الكريم أو الحديث إسهامات وتصنيفات أثرت المكتبة العربية. إن شرحهم وبيانهم لهذه الأمور هي ما يشتغل به علماء الدلالة المحدثون. لقد بين علماء العربية أن صعوبة المعنى تأتي من:

١- غرابة اللفظ: وليس معنى الغرابة أن اللفظ غير مألوف ولا يمثل كونه جزءاً من رصيد اللغة الفعلي ولكن قد يكون اللفظ لا يستعمله ولا يعرفه إلا الخاصة وهذا ما يلاحظ في كثير مما أطلق عليه العلماء "مصطلح الغريب" لتباعد الناس عن استعماله وغيابه عن معرفتهم إذ أنهم قنعوا بمعرفة واستعمال الألفاظ التي يتداولون بها في حياتهم اليومية وهجروا جزءاً من اللغة فأضحت غريبة عندهم. فهم يعرفون "الحجر" ولا يعرفون إلا ثلب أو الكثكث ويفهمون معنى "القفز" ولا يعلمون "الحجل" وهو أن ترفع رجلاً وتقفز على الأخرى من الفرح فكانت كتب غريب القرآن والحديث وكتب التفاسير رافداً ومعينا في تأسيس وتوضيح المعنى.

٢- أن يكون استعمال اللفظ على سبيل الاستعارة، فالساق للإنسان والحيوان والشجر والطائر. ولكن استعملت لتدل على الشدة وهول الموقف.

أن يكون اللفظ من المقلوب الذي يراد به غير معناه كقولهم للديغ سليم تفاؤلا بسلامته وللفلاة مفازة. وقد يكون للاستهزاء والسخرية-٣ كما تقول للرجل تستجهله: يا عاقل، وتستخفه: يا حليم ومن هذا قولنا في لغتنا المعاصرة يا ذكي لعديم الذكاء، ويا كريم للبخيل استهزاء

وسخرية. وغير ذلك من الاستعمالات التي يراد بها خلاف ما تعنيه. وقد ركز كثير من المحدثين على دراسة التعدد الدلالي الناشئ عن الاستعارة والماز لما لهما من أثر في تبديل المعنى من دلالة الى دلالة أخرى.

٤- مخالفة ظاهر اللفظ معناه وهو أن تأتي الألفاظ مركبة في جملة ولكن معناها يختلف إذ يراد به شيء آخر مثل قولنا: "له يد علي" أي صنع معروفاً، و"لسانه طويل" أي شتام، وتدخل الكناية في هذا إذ أنها اللفظ.الذي يحتمل الدلالة على المعنى وعلى خلافه كقوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن" محذرا عن المرأة الحسناء في المنبت السوء.

٥- احتمال المعنى: وله صور متعددة منها:

أ- أن تكون الأداة التي لها الصدارة في الجملة تحتمل أكثر من معنى مثل "كيف" تحتمل الاستفهام والتعجب في قولنا "كيف تفعل هذا".

ب- عدم إحكام تركيب الجملة إذ أن تركيبها يجعلها تحتمل أكثر من معنى لعدم وجود قرينة تزيل اللبس لهذا اهتم تمام حسان بالقرائن وأكد عليها لأنها تزيل اللبس واحتمالات المعنى وضرب لنا مثلاً لبعض الجمل الملبسة مثل "ذهبت إلى أبناء زيد وعمرو" لا ندري إن كان العطف على الأبناء أو على زيد، "اشتريت مزرعة لزيد" إن كانت "اللام" بمعنى التعليل فالمزرعة من أجل زيد، وإن كانت للملكية فإن المزرعة كانت لزيد، واللبس واحتمال المعنى كثيراً ما نصادفه في لغتنا المعاصرة مثل: "نجح عشرون طالباً وطالبة" لاندري هل المقصود أن عدد الناجحين هو عشرون ما بين طالب وطالبة أم أن العدد واحد وعشرون؛ عشرون طالباً وطالبة واحدة" وكذلك: "لقيت زيداً راكباً" هل الحال للفاعل أم للمفعول إذ أنها تصلح أن تكون للاثنين ومنها قولنا" أكل محمد الطعام الذي أعدته أمه في الحديقة" و"ضربت الولد الذي قابلته في المدرسة" فيحتمل أن يكون الطعام أعد في الحديقة وقد يفهم أن الأكل حصل في الحديقة، أما الجملة الثانية فيحتمل أن يكون الضرب للولد الذي تمت مقابلته في المدرسة، وقد يكون الضرب حصل في المدرسة.

الدلالة الصوتية: يتحدث العلماء عن الدلالة الصوتية وأثرها في وضوح المعنى، لأن نطق الأصوات نطقاً صحيحاً يساعد على معرفة المعنى، بينما عدم وضوح النطق يؤدي إلى الإبهام في تحديد المعنى، فالخلط بين الأصوات يفضي إلى الخلط في المعنى، فهناك من لا يفرق بين القاف والغين والزاي والذال فتصبح "قوي" "غوي" و "يتزكى" "يتذكى" وغير ذلك من الأمور الصوتية.

كما أن لإيحاء الأصوات أثراً في تعميق المعنى في النفس وتصويره. وقد أشار الخليل بن أحمد مبكراً بأن العرب قالوا: صر الجندب صريرا وصرصر الأخطب صرصرة فكأنهم توهموا في صوت الجندب مداً، وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعاً وقال عندما ذكر الصلصلة والزلزلة " يتوهمون في حسن الحركة ما يتوهمون. في جرس الصوت.

وقد قاد هذا إلى فكرة الارتباط بين المعنى وما يتألف منه اللفظ من أصوات وهي فكرة لا تخلو من صحة وصدق. وقد انشغل بعض اللغويين بإيحاءات الأصوات ودلالاتها. فالأصمعي في كتاب "الاشتقاق" وابن دريد في "الاشتقاق" حاولا تفسير الأسماء والقبائل على ضوء إيجاد علاقة صوتية بين "الاسم والمسمى" فمهلهل مأخوذ من "الهلهلة" سخف الثوب ورقته "وقحافة" من القحف أخذك كل ما بقى في الصحفة. ويقول ابن دريد وإنما سمي قصياً لأنه قصا عن قومه. ويروي أن أبا عمرو سأل أعرابياً عن الخيل لماذا سميت بذلك فقال:

من الخيلاء لأن في مشيتها تيهاً وعجباً. وتوسع ابن جني في بيان إيحاء الأصوات للمعنى فعقد في أكثر من باب الصلة بين الأصوات ومعانيها، فذكر أن الخضم لأكل الرطب من الأشياء أما القضم فلليابس. والنضح لسيلان الماء بضعف والنضخ لتدفق الماء بقوة وشدة.

يتحدث العلماء عن تطور الدلالة وتغير معاني الألفاظ ويرون أن معاني الألفاظ أكثر أجزاء اللغة عرضة للتبدل ومنذ بداية علم اللسانيات أبان دي سوسير ذلك بقوله: "كل جزء من أجزاء اللغة عرضة للتطور هذا التغيير يحدث بنسب مختلفة ولا يشعر به". وجاء العلماء من بعده فوضحوا أسباب التطور والتغير ومظاهره معتمدين على تتبع اللغة عبر تاريخها.

واللغة العربية ليست بدعا من بين اللغات فكثير من دلالات ألفاظها أصابه التطور وتوسع في معانيها ليعبر عن معان جديدة لم يألفه العرب من قبل. وإذا تتبعنا تاريخ اللغة العربية نجد أن كثيرا من ألفاظها تطور من المحسوسات إلى معان مجردة فكلمة "برهان" مأخوذة من بره الرجل ثاب جسمه من بعد علة ثم أصبحت تدل على الحجة لما فيها من بيان ونصوع وقد عبر ابن فارس عن أسباب

التطور الذي لحق العربية في لفتة تدل على ريادة وسبق يقول: "كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم وقرابينهم فلما جاء الله جل وثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات، وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع بزيادات زيدت وشرائع شرعت وشرائط شرطت فعفى الآخر الأول" فمن أهم أسباب تطور الدلالة كما تظهر عند ابن فارس:

١- الحاجة: التي تدعو المجتمع اللغوي إلى التصرف في اللغة ونقل ألفاظها إلى معان لم تكن معروفة وهذا ما أشار إليه في نصه السابق فالفسق لا يعرفه العرب إلا في مظهره المادي وهو خروج الرطبة من قشرها ولكن نقلت في الإسلام إلى معنى الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه وكذلك لفظ الزكاة والكفر والصوم.

٢- انتقال المجتمع من حياة إلى حياة أخرى من دواعي تبدل معاني الألفاظ والاستغناء عن بعضها ويتضح هذا عندما جاء الإسلام ونقل العرب من حياة اللهو والخمر والميسر فأبطلت ألفاظ واستغنى عنها لأنها لم تعد من مقومات المجتمع فزالت ألفاظ الميسر وبعض العادات في البيع. والشراء كالأتاوة والخراج والمكس دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق فالتطور الاجتماعي والثقافي الذي يعد أحد أسباب تغير المعنى تعرض له علماء العربية فذكروا أن هنالك كلمات أحدثها الإسلام لم تكن معروفة مثل "الجاهلية" اسم حدث للزمن الذي كان قبل البعثة، والمنافق للذي يبطن خلاف ما يظهر إذ كان هنالك قوم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر وغير ذلك من الألفاظ عبرت عن حياه المجتمع الجديد.

٣- إساءة الفهم: الانحراف واستعمال اللفظ في غير ما وضع له أحد الأسباب التي تؤدي إلى نقل الألفاظ من معناها إلى معنى آخر. فقد يحدث أن يسمع شخص لفظا ولكن يسيء فهمه أو تكون دلالته غير واضحة فيستخدمه في معنى مغاير لا يمت إلى معناه الأصلي وقد عد ابن خلدون الانحراف اللغوي واستعمال اللفظ في غير ما وضعته العرب له أحد الأسباب التي جعلت الخليل بن أحمد يصنف كتاب العين. وقد أبان ابن قتيبة في باب ما يضعه الناس في غير موضعه كيف أن "الحشمة" يضعها الناس موضع الاستحياء وهي تعني الغضب و"القافلة" يذهب الناس إلى أنها الرفقة في السفر. وقد أرجع إبراهيم أنيس تعدد معاني بعض الألفاظ العربية إلى استعمال اللفظ في غير ما وضع له ثم قد لا تتاح لهذا السامع فرص أخرى لتصحيح خطئه ويبقى اللفظ في ذهنه مرتبطاً بتلك الدلالة الجديدة إلى جانب بقاء الدلالة الأصلية.

وبعد فلعلنا لا نتجاوز الحقيقة حين نؤكد أن لعلماء العربية إسهامات واضحة في علم المعنى فقد وضعوا أصولاً وأرسوا مفاهيم انبثقت من تصورهم للغة هذه الأصول والمفاهيم تشبه إلى حد كبير المفاهيم والتصورات لعلم الدلالة المعاصر فقد أبانوا:

١- أن الكلمة هي أساس الوحدة الدلالية ومنها تنشأ الوحدات الدلالية الأخرى فمنها تبنى العبارة وعنها تتركب الجملة لذا كانت موضع اهتمام العلماء بمختلف اتجاهاتهم.

٢- أن المعنى لا تتوقف معرفته فقط على اللفظ مفرداً أو مركباً في جملة ولكن للأصوات إيحاءات دلالية تزيد في المعنى. كما أن لبنية الكلمة أثرها في إيضاح المعنى إذ يقوى بقوتها ويزداد بزيادتها فزَلَّ لها معنى غير زَلْزَلَ لأن الثانية تدل على تحرك واضطراب وأن الحدث فيها تكرر.

٣- احتمالات المعنى تنشأ من أمور كثيرة منها الغموض، ويأتي في مقدمتها عدم إحكام بناء الجملة، واستعمال الألفاظ والأدوات التي لها أكثر من معنى، كما أن للمشترك اللفظي دوره في احتمال المعنى.

٤- دلالات الألفاظ عرضة للتطور والتغير فمن أسباب تغير الدلالة الحاجة التي تؤدي إلى التوسع في معانيها ونقلها إلى معان جديدة تمليه ظروف تغير المجتمع وتطوره.

المصادر:

- أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة،١٣٧٧ ه – ١٩٥٨م.

- أمثال العرب، المفضل الضبي، قدم له وعلق عليه إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت.
- البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤١٧ ه – ١٩٩٣م. - تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث الطبعة الثانية،١٣٩٣ ه – ١٩٧٣م.
- التفكير اللساني في الحضارة العربية، عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، الطبعة الأولى،١٩٨١م.
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، حققه محمد علي النجار، دار الكتب المصرية،١٩٧١ ه – ١٩٥٢م.
- دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة،١٩٨٠م.
- الصاحبي، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق السيد أحمد صقر.
- علم الدلالة، أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة، الطبعة الأولى، الكويت،١٤٠٢ ه – ١٩٢٨م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبي الفتح ضياء الدين ابن الأثير، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد،١٣٥٩ ه – ١٩٣٩م.
- مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٥، ع ٢٧، جمادي الثانية ١٤٢٤ ه.
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة العالمية، طهران.
- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق محمد بعد الخالق عضيمة، عالم الكتب بيروت.
- نظرية النحو في ضوء مناهج التطور اللغوي الحديث، نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى،١٤٠٠ ه.

Рецензент: к.филол.н., доцент Абдулазим Бадран